

## التمثيل السياسى بين الخلافة العباسية والدولة البيزنطية

لم تكن العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين فى العصور الوسطى ، قصة حروب متصلة الحلقات ، أو إغارات متكررة تبادها الطرفان ، على نحو ما يستشف القارئ العابر من الحوليات التى تناولت تلك العلاقات بالتأريخ . فقد جهدت الدولتان الإسلامية والبيزنطية على إقامة علاقات حسن الجوار ، وتجنب رعاياهما ويلات الحروب . واعتمدتا فى تنفيذ السياسة السالفة على ديوان الرسائل ، وهو ما عرف أيضاً فى الدولة الفاطمية بديوان الإنشاء والمراسلات . فكان هذا الديوان أشبه بوزارة الخارجية فى المصطاح الحديث ، يوجه سياسة الدولة الخارجية ، ويضع التوجيهات والتعاليم التى تسير عايتها هذه السياسة . وتمتع صاحب ديوان الرسائل ، ( أو وزير الخارجية )  $\lambda\omicron\gamma\omicron\theta\epsilon\tau\eta\varsigma\ \tau\omicron\upsilon$   $\delta\rho\omicron\mu\sigma\nu$  فى الدولة البيزنطية بمركز رفيع . فكان أعظم المقربين إلى الإمبراطور ، وأكثر الناس ملازمة له فى جلساته العامة والخاصة<sup>(١)</sup> . وتمتع قرينه فى الدولة الإسلامية بنفس السلطان والنفوذ ، حسبما ورد فى نص متأخر تناول فى إسهاب تاريخ ديوان الرسائل أو الإنشاء ؛ « فهو أول داخل على الملك وآخر خارج عنه ، ولا غنى له عنه فى مفاوضته فى آرائه ، والإفضاء إليه بمهمات ، وتقريبه منه فى آناء ليله وساعات نهاره . . . . . » فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصته ثقته به ، ولا يركن إلى قريب ولا نسيب ركونه إليه .<sup>(٢)</sup> » وتولى صاحب ديوان الرسائل<sup>(٣)</sup> انتقاء السفراء عندما تقتضى الظروف

( ١ ) S. Runciman, Byzantine Civilization, 155.

( ٢ ) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

( ٣ ) كان المصطلح بهذا المنصب الجليل يتحلّى بصفات خلقية وعلمية ممتازة . فلا بد من توافر

الاتصال الدبلوماسي . إذ لم يكن للدولتين الإسلامية والبيزنطية ممثلون دائمون ، أو دور سفارات متبادلة بينهما على نحو ما هو معروف في العصر الحديث . فكان السفير إذ ذاك أشبه بما يعرف اليوم من « السفراء فوق العادة » ، الذين يوفدون لأداء عمل ينتهي بانتهاء مهمتهم<sup>(١)</sup> . على أن اختيار السفراء لم يجر اعتباراً ، وإنما وضعت الدولة الإسلامية شروط عدة لانتقائهم ، أهمها توافر مميزات جسمانية وخلقية وثقافية .

وقد وضعت المؤلفات العربية لبيان الشروط الواجب توافرها في السفير ، وذكرت أمثلة عدة لسفارات عربية وغير عربية للإيضاح وإكمال الفائدة . ومع أن هذه الكتب العربية متأخرة عن الفترة التي يعالجها موضوع المقال على هذه الصفحات ، فإن أهميتها جلية في بيان علو كعب الدولة العباسية لما ذخرت به من أمثلة عديدة لسفراء هذه الدولة . كما أن التعليمات والتوجيهات التي رددتها هذه الكتب لا تقل عن الأعمال التي دونها علماء الدولة البيزنطية في ميدان السياسة والدبلوماسية<sup>(٢)</sup> . ومن ثم تشابهت أعمال السلطات الإسلامية والبيزنطية تقريباً في انتقاء سفرائهما والمهام التي أقيمت على كاهل أولئك السفراء .

---

الفتنة والزرافة فيه ، فلا يكثر من التصريح في كلامه ، ويستغنى عن ذلك بالإشارة والإيماء كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وإلى جانب ذلك كان عليه أن يلم قدر استطاعته باللغات الأجنبية كتابة وحديثاً ، ولا سيما التي تتعلق بأمور دولته .

( ١ ) Runciman, op cit, 156

( ٢ ) من الكتب العربية الهامة التي تناولت التمثيل الدبلوماسي للدولة الإسلامية ، وشروط اختيارها للسفراء ، وذكر أمثلة لمهام أولئك السفراء وما جرى لهم من أحداث ، كتاب « رسل الملوك » ، ومن يصلح للرسالة والسفارة » ، لمؤلفه ابن الفراء . وقد نشر هذا الكتاب الأستاذ صلاح الدين المنجد ، وعلق عليه في إسهاب . ودون أحد أباطرة الدولة البيزنطية ، ويدعى قنسطنطين السابع ( الملقب بـ « بروفروجنيتوس » ) كتاباً اسمه « المراسيم » ( De Ceremoniis ) شرح فيه لابنه قواعد اللياقة ( البروتوكول ) الواجب اتباعها في البلاط البيزنطي . وتناول في هذا الكتاب ذكر السفراء البيزنطيين ومهامهم ، ووصف لاستقبال السفراء المسلمين وقواعد معاملتهم . ويعطينا هذان الكتابان خطوطاً عامة عن التمثيل الدبلوماسي بين العباسيين والبيزنطيين .

ومن الخصائص الجثمانية التي ذكرت في انتقاء السفير<sup>(١)</sup> « تمام القد ، وعبالة (ضخامة) الجسم ، حتى لا يكون قسيئاً ولا ضئيلاً . وإن كان المرء بأصغرية ، ونخبوء تحت لسانه ، فإن الصورة تسبق اللسان ، والجثمان يستر الجنان<sup>(٢)</sup> . » على أن هناك أمثلة قليلة جداً شذت فيها القاعدة السالفة عندما بذت الخصائص الأخرى للسفير مميزات الجثمانية . فكان يراعى في السفير أيضاً الفطنة والذكاء ، والمقدرة على التعبير الصحيح ، والمعرفة الواسعة لشتى العلوم والفنون ، ولا سيما المسائل الدينية<sup>(٣)</sup> .

وبقدر توافر المميزات السالفة في السفير بقدر ما زادت خدماته لدولته . ومن ثم تغالى كل من الخلفاء العباسيين والباباطرة البيزنطيين في انتقاء السفراء ، إذ توقفت تحديد سياسة الدولة من سلم أو حرب على التقارير التي يقدمها أولئك السفراء بعد عودتهم . وكان السفير يزود قبل سفره بتعليمات سرية ، يمددها به قلم الخبايا السرية ( أى الجواسيس ) عن البلد الموجه إليه . فالمعروف أن المسلمين والبيزنطيين استخدموا الجواسيس بشكل ملحوظ لخدمة أغراضهم الحربية ، وتنفيذ مآربهم السياسية .

وسار التمثيل الدبلوماسى بين الدولتين العباسية والبيزنطية وفق قواعد مقرره ، ونظم ثابتة . واستهدف تحقيق أغراض تشبه إلى حد كبير الأعمال التي يضطاع بها رجال السلك السياسى بين الدول فى الوقت الحاضر . فكان السفير يزود قبل سفره بخطاب عليه الشارة الملكية ، أو الخاتم الملكى ، وبه تعريف بالمهمة التى كلف بها ، على نحو أوراق الاعتماد التى يزود بها السفراء فى الوقت الحاضر . وبعد أن يتم السفير إعداد أوراقه الرسمية يخرج على رأس قافلة ،

( ١ ) تذكر المراجع العربية كلمة رسول للدلالة على كلمة السفير التى استخدمتها فى هذا المقال . والتحديد اللغوى لهاتين الكلمتين واحد ، فالرسول مهما تعددت أغراضه له صفة واحدة ، هى التوجيه ونقل الأخبار ، وكذلك السفارة معنى من معانى الرسالة ، وهو التوجه والانطلاق إلى القوم . وفضلت كلمة سفير لشيوعها فى الوقت الحاضرة .

( ٢ ) ابن الفراء : رسل الملوك ، ص ٢٠ .

( ٣ ) ابن الفراء : رسل الملوك ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

محملة غالباً بالهدايا الثمينة لسيد البلاد المتجه إليها ، ولكبار رجال الدولة هناك<sup>(١)</sup> .

واعتادت السفارات الإسلامية والبيزنطية اجتياز الممر المعروف باسم أبواب قليقية ، عند ذهابها إلى القسطنطينية أو بغداد<sup>(٢)</sup> . وفي العاصمة يحدد للسفير يوم يقابل فيه ولي أمر البلاد ، وتقديم الرسالة الملكية التي يحملها . وقبل ذلك اليوم يقضى السفير وقته مع رجال القصر ، يتلقن منهم آداب مقابلة ولي أمر البلاد ، وأساليب التحية التقليدية . إذ لو أساء السفير الساوك أو لم يرع آداب الحديث ، يلقى في السجن ، أو يعامل معاملة جافة<sup>(٣)</sup> .

ودأبت السلطات الرسمية على وضع السفير في فترة الانتظار كذلك تحت الرقابة الشديدة ، ومنعه من الاطلاع على شيء لا ترغب الدولة في كشفه له . فتحول السلطات مثلاً بين اتصال السفير وبين الشخصيات التي يجب أن تظل بعيدة عن الشؤون السياسية ، أو يخشى من اتصالحهم كشف أسرار علمية أو حربية . ولكن السفراء جاهدوا في تلك الأثناء على مقابلة الشخصيات البارزة في الدولة من الوزراء ، لتسهيل مهمتهم ، وتحقيق أسباب النجاح لها . فمن ذلك ، أن السفير البيزنطي نففور أورانيوس ( Nicephorus Uranius ) كان مزوداً — عندما أوفد إلى بغداد سنة ٩٨٠ م — بتعليمات تنصحه بخطب ودّ عضد الدولة ، أعظم شخصية في الدولة الإسلامية إذ ذاك<sup>(٤)</sup> .

وعندما يأتي يوم المقابلة يجلس الخليفة أو الإمبراطور في أبهى حلة ، متصدراً كبار رجال دولته في قاعة الاحتفالات ، ويخصص للسفير مكان بارز يليق بمقامه والمهمة التي جاء من أجلها ، ويقدم على سائر سفراء الدول الأخرى . إذ حرصت الدولتان الإسلامية والبيزنطية على معاملة سفرائهما معاملة ممتنزة ، ثم عن تقدير كل دولة للأخرى . ويقدم السفير الخطاب الملكي ، فيقبله

Baynes, The Byzantine Empire, 74; (١)

Runciman, op cit, 158 .

Le Strange, The Lands of the Eastern Caliphate, 134. (٢)

Runciman, op: cit., 157. (٣)

Ibid., 158. (٤)

صاحب الأمر في البلاد ، ويسلمه لوزيره ، ويستعرض بعد ذلك الهدايا . وكانت أنواع هذه الهدايا تذكر في الخطاب الملكي . ففي خطاب ورد مع سفير بيزنطى للخليفة المعتمد جاء فيه قول الإمبراطور : « وقد تهادت الملوكة من قبلنا ، وقد وجهت مع رسولى من الثياب الديباج المذهبة أربعين ثوباً ، طول كل ثوب منها أربعون ذراعاً في عرض عشرين <sup>(١)</sup> . »

ويُسأل السفير في المقابلة الملكية عن أحوال دولته وسيرة قادتها ، وعن مرافقها الاقتصادية وغيرها من الشؤون التى تهتم السلطات معرفتها . وتفاوتت مقدرة السفراء في الحيلة في الإدلاء بالمعلومات ، والاشادة بدولهم <sup>(٢)</sup> . وعندما تنتهى المقابلة يخرج السفير إلى دار الضيافة التى يقيم بها إلى أن ينتهى من مهمته . وتحتفى الدولة بالسفير مدة بقاءه بعاصمتها حفاظاً تهدف منها إعطاءه صورة طيبة عن أحوالها وهبتها .

وتعددت مظاهر الحفاوة بالسفراء ، فكان يقام لبعضهم عرض عسكري كبير ، تعرض فيه الدولة قوتها الحربية ، ولا سيما إذا كانت مهمة السفير تتعلق بإنهاء حالة حرب . وأحياناً يوضع للسفير برنامج للترفيه ، ومشاهدة معالم العاصمة وروائع العمارة بها . وكان السفراء يحذرون قبل سفرهم من التماذى في التمتع بألوان الحفاوة ، حتى لا يدلوا بأقوال تسيئ إلى بلدهم أو تفضى أسرار خطيرة . فحرم عليهم شرب الخمر أو مصاحبة النساء أثناء تأديتهم سفارتهم <sup>(٣)</sup> . وبذت مشاهدة معالم العاصمة مظاهر الحفاوة الأخرى . ومن ذلك أنه وفد

على الخليفة أئى جعفر المنصور أحد سفراء الدولة البيزنطية ، بعد انتهائه من بناء بغداد . فأمر الخليفة حاجبه الربيع بن يونس أن يصحب السفير في جولة حول العاصمة ، يريه فيها قباب الأبواب ، ومناعة الأسوار ، وما في عاصمته من العمران . وعندما عاد السفير من جولته سأله الخليفة عن ملاحظاته ،

(١) ابن الفراء ، نفس المرجع ، ص ٣٥ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٣) ابن الفراء : نفس المرجع ، ص ٢٥ .

ومدى ما تركته هذه المظاهر في نفسه من أثر<sup>(١)</sup>.

وبالغت الدولة البيزنطية في إكرام السفراء المسلمين ، فكانت تعهد إلى بعض موظفيها باصطحاب السفير لمشاهدة كنيسة أيا صوفيا أعظم الكنائس بالقسطنطينية ، وغيرها من الأديرة بالمدينة . وأقيمت حفلات للسفراء في الملعب ( Hippodrome ) ، الذى كان يعد قلب المدينة النابض<sup>(٢)</sup> . إذ كان يؤمه عليه القوم لمشاهدة المباريات الرياضية ، وألوان السباق والتنافس بين الرياضيين . وأظهر السفراء المسلمون اعتداداً بالنفس ، جعل الدولة البيزنطية لا تتبع معهم أساليب الترفيه التى دأبت على تقديمها لسفراء جيرانها من المتبربرين . فكان السفير المتبربر يشاهد غرف القصر الزاخرة باللعب وتماثيل الطيور والأسود ، التى تحرك آليا لإثارة الدهشة والعجب<sup>(٣)</sup>.

ولم تصرف مظاهر الحفاوة السفراء عن تأدية مهمتهم ، كما لم تصرف الدولة الوافدين إليها عن مراقبتهم سرّاً . إذ كانت السفارات المتبادلة تهدف إلى التبليغ بقيام خليفة أو إمبراطور جديد على العرش ، أو إنهاء حالة حرب بين الدولتين أو تبادل الأسرى وإزالة حالة توتر توشك أن تؤدى إلى إشعال نار الحرب . وكان النوع الأول من السفارات قليل ، ولكن كثيراً ما أخفى وراءه أغراضاً سياسية ، هدفها استطلاع أحوال البلاد .

على أن السجل الدقيق لنظام السفراء يستشف من الأحداث التى دونتها الحوليات الإسلامية والبيزنطية عن تبادل الأسرى بين الجانبين . ففي سنة ٨٥٩ م ( ٢٤٦ هـ ) أرسل الإمبراطور ميخائيل الثالث أحد كبار رجال دولته — ويدعى في المراجع العربية أطر وبيليس ، ويحتمل أنه قنسطنطين تريفيليوس ( Triphylius ) فى المراجع البيزنطية — إلى الخليفة العباسى المتوكل ، لمفاوضته فى تبادل الأسرى

( ١ ) ياقوت : معجم البلدان ( بغداد ) ؛ ج ٢ ، ص ٢٣٣ .

الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج ١ ، ص ٧٨ .

( ٢ ) ابن رسته : الأعلام النفيسة ، ص ١٢٠ .

( ٣ ) Baynes, op cit , 72

( ٤ ) Vasiliev, Byzance et les Arabes, 234, 235.

لدى كل منهما قبل الاتفاق على الفداء . فأرسل الخليفة المتوكل في نفس السنة سفيراً إلى القسطنطينية ، يدعى نصر بن الأزهر ، ليتأكد من صحة أقوال السفير البيزنطى<sup>(١)</sup> .

ووصل السفير العباسى إلى القسطنطينية متشحاً باللباس السوداء ، وعلى رأسه القلنسوة ، ومتمنطقاً سيفاً وخنجرًا ، وهو اللباس الرسمى للعباسيين . وعندما جاء موعد مقابلة الإمبراطور أبى وزير خارجته - وكان بتروناس - خال الإمبراطور - أن يسمح للسفير بدخول البلاط على هذه الهيئة ، مبدئياً إعتراضه على الملابس السوداء ، وعلى السيف بصفة خاصة . غير أن النخوة دبّت في نفس السفير الإسلامى ، واستبد به الغضب ، وهم راجعاً . فاضطر رجال الدولة البيزنطية إلى ملاطقة السفير ، حتى عاد إلى البلاط ، ودخل على الإمبراطور ، وقدم له الهدايا .

وروى السفير ما حدث له ، وما شاهده في البلاط البيزنطى في هذه الصورة الشيقة : « . . . . وأبوا أن يدخلونى بسيفى وسوادى . . . . فانصرفت ، فرددت من الطريق ، ومعى الهدايا نحواً من ألف نافجة مسك ، وثياب وحرير وزعفران كثير وطرائف . . . . وحملت الهدايا التى معى ، فدخلت عاياه ( أى الإمبراطور ) فإذا هو جالس على سرير فوق سرير ، وإذا البطارقة حوله قيام . فسلمت عليه ، ثم جلست على طرف السرير الكبير ، وقد هيئ لى مجاس ، ووصفت الهدايا بين يديه<sup>(٢)</sup> . »

وكان مع الإمبراطور ثلاثة تراجمة ، نقلوا كلام السفير العباسى ، الذى أبدى كياسة ومهارة دبلوماسية قبل بدء الحديث ، إذ حذر المترجمين من الأطناب فى كلامهم قائلاً لهم : « لا تزيدون على ما أقول لكم شيئاً<sup>(٣)</sup> » وقد حدث أثناء إقامة السفير العباسى بالقسطنطينية جفوة بين الدولتين الإسلامية

( ١ ) الطبرى ، تاريخ الرسل ج ١١ ، ص ٦١ .

( ٢ ) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٦١ .

( ٣ ) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٦١ .

والبيزنطية ، بسبب الخلاف على قلعة اللؤلؤة<sup>(١)</sup> بآسيا الصغرى . فبقى السفير أربعة أشهر لا يقابل فيها الإمبراطور لإنهاء مهمته . ولما سويت المشكلة السالفة استؤنفت المفاوضات لإجراء الفداء .

وتجلت في هذه المرحلة من المفاوضات مهارة السفير الإسلامى الدبلوماسية . فبعد أن أتم الاتفاق أقسم كل من السفير وبتروناس - وزير الخارجية - نيابة عن الإمبراطور على احترام الشروط التى عقدها . ولكن السفير العباسى التفت إلى الإمبراطور وقال : « أيها الملك ، قد حلف لى خالك ، فهذه اليمين لازمة لك ؟ » فأجاب الإمبراطور برأسه ، نعم . وعلق السفير على ذلك بقوله فى مذكراته : « ولم أسمع ( أى الإمبراطور ) يتكلم بكلمة منذ دخلت بلاد بلاد الروم ( أى الدولة البيزنطية ) إلى أن خرجت منها ، إنما يقول الترجمان ، وهو يسمع ، فيقول برأسه ، نعم ، أو لا . . . . ونحاله المدبر أمره<sup>(٢)</sup> . »

وكانت الخطابات التى يحملها السفراء لإجراء تبادل فى الأسرى ، واضحة الأهداف والأغراض . ومن ذلك كتاب جاء إلى المعتصم العباسى بعد عودته من حملة عمورية ، التى ضربها سنة ٨٣٨ م ( ٢٣٢ هـ ) انتقاماً لإغارة سبق أن شنها البيزنطيون على مدينة زبطرة الإسلامية عام ٨٣٧ م ( ٢٢٣ هـ ) . فجاء فى خطاب الإمبراطور البيزنطى ما نصه : « إن الملوك لم تزل يغزو بعضها بعضاً ، ويعلم بعضها على بعض . . . . وقد كان منا بزبطرة ما كان ، وتبينت وجه الخطأ فيه . وقد كلفت لى بالصاع أصوعاً فيما فعلت بعمورية . وأنا أسألك بالطينة المباركة التى أنت منها أن تنعم على بإطلاق بطارقى ، فإنهم مائة وخمسون بطريقاً . وأنا أفتدى كل واحد منهم بمائة من المسلمين<sup>(٣)</sup> . »

( ١ ) تتحكم هذه القلعة فى الممر المشهور باسم الأبواب القليقية ، وحرص كل من المسلمين ، والبيزنطيين على بقائها فى قبضتهم . وكان أهالى هذه القلعة يحولون ولاءهم من السلطة الإسلامية إلى البيزنطية ، وبالعكس ، مما أدى كثيراً إلى بث روح التوتر بين الدولتين ، على نحو ما حدث فى الفترة السابقة الذكر بالمقال .

( ٢ ) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٦١

( ٣ ) ابن الفراء ، نفس المرجع ، ص ٣٤



وبيين الخطاب السالف حرص الدولة الإسلامية على الاحتفاظ بكبار الأسرى البيزنطيين . إذ استهدفت من ذلك تسخيرهم في خدمة أغراضها السياسية . وتجلت هذه السياسة الإسلامية على عهد العباسيين بصورة واضحة أيضاً في احتضانها لكبار رجال الدولة من البيزنطيين الخارجين على السلطات الرسمية بها . ومن ثم غدت مهمة السفارات كذلك وضع حد لهذه المشاكل ، التي كانت تلى في أهميتها تبادل الأسرى .

وكان السفراء البيزنطيون يتحاليون ، في أشباه هذه المهام الخاصة بإعادة اللاجئين السياسيين ، بوسائل أشبه بما يتذرع بها رجال السلك السياسى في الوقت الحاضر . ففي السنوات الأولى من عهد الإمبراطور البيزنطى ثيوفيل ( ٨٢٩ - ٨٤٢ م ) توجه رسول من قبله يدعى حنا النحوى إلى الخليفة العباسى المأمون ، ومعه خطاب يعلن للسلطات الإسلامية نبأ تولى الإمبراطور ثيوفيل العرش . وفضلاً عن ذلك كلف السفير البيزنطى بتهدئة الحالة السياسية التي كانت متوترة إذ ذاك بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية . ووقع الاختيار على حنا لتضلعه في اللغة العربية ، حيث جهدت السلطات الرسمية على إيفاد السفراء من الضليعين في اللغتين العربية واليونانية<sup>(١)</sup> .

وعمد حنا على أن يبدو أثناء إقامته في بغداد بمظهر الثرى الجواد . فكان يحمل للخليفة العباسى هدايا ثمينة ، كما نثر الذهب على المحيطين به كما تنثر الرمال ، على حد قول المراجع البيزنطية ، وأجزل العطاء لمن اتصل بهم في دار الضيافة ببغداد<sup>(٢)</sup> . وكان حنا يخفى بهذه المظاهر هدفاً آخر جاء من أجله إلى العاصمة الإسلامية . إذ قام ببغداد في ذلك الوقت لاجئ بيزنطى يدعى مانويل ، كان من كبار القادة البيزنطيين وأعظمهم خبرة بفنون القتال . وقد اتهم هذا القائد في أوائل الإمبراطور ثيوفيل العرش بالتآمر على سلامة الدولة . ففر مانويل إلى حدود قليقية ، حيث قابل عمال الحدود المسلمين ، وطلب منهم

Bury, History of the Eastern Empire, 256. (١)

Ibid., 256. (٢)

السماح له بمقابلة الخليفة<sup>(١)</sup>.

ورحب المأمون بهذا القائد ، واستخدمه في الحملات التي شنّها ضد طائفة الخرمية وزعيمها بابلك . وكانت جماعة الخرمية شديدة المراس في ثورتها على الخلافة الإسلامية بتحريض البيزنطيين ، لإحداث القلاقل بالدولة ، وصرفها عن الهجوم على أراضيها . ولكن تبين للإمبراطور ثيوفيل بعد استتباب الأمر له في الدولة براءة القائد مانويل ، وعمل على استدعائه للاستفادة من خدماته مرة أخرى ، وحرمان الدولة الإسلامية من جهوده . ومن ثم جاء حنا النحوى متخفياً تحت ستار إعلان نبأ تولى الإمبراطور ثيوفيل العرش ليتصل بمانويل سراً ، ويغريه على العودة إلى بلاده<sup>(٢)</sup>.

واستطاع حنا تأدية مهمته ، فالتقى بمانويل بعيداً عن أعين الرقباء وأبلغه عفو الإمبراطور ، وتأكدّه من براءته ، ووعدّه برفع منزلته . واتفق مانويل مع حنا على خطة الهروب . إذ تمكن مانويل من إغراء الخلافة العباسية باشتراكه في حملاتها على الدولة البيزنطية . وعندما اقترب من الحدود فرّ إلى داخل الأراضي البيزنطية<sup>(٣)</sup> ، بعد نجاح سفارة حنا النحوى .

وهكذا كانت العلاقات الدبلوماسية بين الخلافة العباسية والدولة البيزنطية المحور الذي دارت عليه كثيراً من أحداثهما ، وصمام الأمن الذي حفظ التوازن بينهما ، عندما اشتدت الأزمات . كما حققت السفارات المتبادلة بينهما أغراضاً شتى من جس النبض والتحليل على تنفيذ المآرب من أسهل طريق وأيسره . ولكن رغماً عن تعدد الأغراض التي اضطلعت بها السفارات بين العباسيين والبيزنطيين فإنها تنهض دليلاً على ماسد الطرفين من ميل إلى تسوية مشاكليهما بالطرق السلمية ، والعمل على إقامة علاقات حسن الجوار ، بما يكفل لهما الحياة الهائنة الطيبة .

دكتور إبراهيم أحمد العدوى

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد - جامعة القاهرة

Bury, op. cit., 257. (١)

Ibid., 257. (٢)

Ibid., 258. (٣)